الاقتصاد في الاسلام

لم يات في تعاليم دين من الاديان ولا في نواميس شريعة في امة اخرى ما جاء في الاسلام من النصائح والترغيبات في عمل الانسان واجتهاده لاثرائه وترفهه او لتعففه عن تكففه حتى اعتبر بذلك السابق في الميدان والمنبعث فيه من قبل نفسه الى الفكرة العلاجية التي لم ينبعث اليها عقل الانسان من قبل.

والاسلام ما جاء بالحط من البطالة ورفع شأن العمل وبالترهيب من تلك والترغيب في هذا الا لأنه الدين الذي جاء عاماً في البشر وحاوياً للشرائط الاولى والاخيرة للتمكن من تعمير الارض وفتح المجاهيل وارتياد الاخطار واستغلال الطبيعة والتقوي بها على التمتع بالحياة كما يراد بها.

وجاء متأخراً عن غيره من الاديان، أي أنه ظهر في دور من ادوار الحياة البشرية كان قد اشرف فيه على عصور وعبر وتواريخ لقبائل وامم وشعوب، فكان علمه اشمل وهديه انفع وحكمه اعدل وتدبيره احكم واتقن لأن الشأن فيه كما قلنا ان يتصفح الازمان ويقيس النتائج والعلل على اشكالها ليتعظ ويعتبر.

ولاكن دعك من هذا الان فانه لم يكن كل السر في اتساع دائرة الاسلام لهذه الميزة الخاصة، فان هناك وحياً الاهياً والهاماً سماويا، سبب فاعل مستقل، لا يمت في حال من الاحوال بصلة الى ذلك التأخر الزمني الذي قد تكون الاحاطة بمعرفة الاحوال العمرانية الماضية من اخص طباعه ولوازمه متبادراً، وانما هو وحده العامل في احتفال الاسلام كثيراً بالحظ على استعمار الارض واستفادة الحياة حقيقة بالتقاط العمل ولفظ البطالة.

وحتى اذا كنا لاندعي تفرد الاسلام بمبدئ الاخناء على الجمود والتورك على البطالة فان لنا ان نعلن الدعوى لابنائه ومعتنقيه بان هديه الى اقتصاد الوقت والاسراف في العمل والتوسع في الكماليات عن الحاجيات اظهر من تنبيه غيره الى ذلك واقدر عليه، واعرف منه بمقدار الحاجة اليه والفائدة فيه، وقد ابطل مبدأ التوحد الذي جرت الرهبنة ويلاته على العائلة البشرية في عصري الشباب والهرم فلم يكن ليرضى لبنيه الاستخذاء والتواكل ولا الانزواء عن الاحياء والزهد في الحقوق ورمي القوميات وامتيازاتها جانباً منسياً، كلا بل جاء يحمل وصاة التضامن واقتسام الخيور والشرور ويدعو الانسان الى الوقوف بجنب اخيو الانسان ليسد خلته ويشد عضده (كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا).

وكان محمد صلى الله عليه وسلم اكثر تنفيذاً لما جاء به عن الله واكبر معلم للناس لما لم يعلموه من ذلك، ومع انه كان بصدد التعريف بالخالق واقناع العقل البشري بوجود حياة اخرى بعد الموت فيها جزاء وعقاب وفيها راحة ونعمة وبقاء الى ما لا نهاية له كما لا نهاية للتسلسل،

نراه كذلك قد وقف وقفة طويلة على باب متعة الدنيا ، وحيت اليه النساء وهن اظهر اغراء وابدع فتنة من كل انواع آفات الحياة فيها ، وقد نقب بيده في الارض وأبر النخيل وبذر النواة ورعى الغنم واتجر وتحين الروافد والقوافل والاسواق وتناول اطايب وملذات جياه مع كل شيء من تحرز الحكيم وتحرج النبي .

وما قامت على مثل هذه الفكرة دولة الاسلام ومدنيته التي يعدها العارفون بتاريخ البشر اسرع المدنيات انبثاقاً من العدم الى الوجود من دون ما تمخض حوادث ولا ارهاص زمان او مكان معتاد الا بما تفجرت به انهاره من الخيرات على المسلمين بافاضة المغانم وتعبيد الجبايا وجلب المكاسب ، وبفتح ابواب التكسب على مصاريعه ، واباحة التمشي مع الزمن والتقلد مع البيئات اشارة الى انه دين عمل في الدنيا والدنيا هي المطيه الوحيدة التي توصل الى الآخرة .

والذين تكلموا في الاقتصاد العام من سائر اقطاب العقل والتفكير في العالم ، ذكروا له اصولا ثلاثة هي قواعده واسسه التي نبه الاسلام اليها كثيرا ، نعم نبه على وجوب العمل الفردي للمصلحة الخاصة فقال : وان ليس للانسان الا ما سعى . وقال : وفل اعلموا . وقال : فانتشروا في الارض . وقال : فامشوا في مناكبها . وورد في الآثار : اعمل لدنياك كانك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كانك تموت غداً ، ولا يقعد احدكم عن طلب رزقه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس : ما المروءة فيكم ؟ فقالوا : العفة والحرفة ، فسكت سكوت الاستحسان والتقرير . وقال ايضاً : لان يحتطب احدكم حزمة على ظهره ويبيعها خير من أن يتكفف الناس . وقال : خير الناس الكاسب وخير الكسب لمن نصح . وقال : ان الله يحب الصانع الناصح والتاجر الصدوق ، وقال للاعرابي : اعقلها وتوكل.

قال ابن عباس قدم قوم على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ان فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر ، فقال ايكم كان يكفي طعامه وشرابه ؟ قالوا كلنا . فقال : كلكم خير منه . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك ، أستقباله معاد فصافحه ، فقال كبنت يداك ! قال نعم احترث بالمسحاة وأنفق على عيالي . فقبله وقال : تلك يد لا تمسها النار . وروى أنس أن رجلا من الانصار جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أتيتك من أهل بيت لا اراني ارجع اليهم من الجوع فقال له : أما عندك شيء ؟ قال لا . فأعطاه درهمين وقال اذهب فابتع بأحدهما طعاماً وبالآخر فاساً واحتطب وبع فغاب خمسة عشر يوماً ورجع فقال : بارك الله لي فيما امرتني به ، اصبت عشرة دراهم فابتعت لاهلي بخمسة طعاماً وبخمسة كسوة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خير ذلك من المسئلة ، ان المسئلة لا تحل الا لاحد ثلاثة : دم موجع ، او غرم مفظع ، او عدم مدقع . وكان عمر رضي الله عنه اذا نظر الى رجل سأله أله عمل لنفسه . فاذا قال لا سقط من عينه . فنظر يوماً الى ابي رافع وهو يصوغ فقال : يا ابا رافع ، انت خير مني تؤدي حق الله وحق مواليك. وقيل لصحابي اتستحي ان تكون نساجاً ؟ فقال انما استحي ان اكون اخرق لا أنفع نفسي.

هكذا يعلم النبي صلى الله عليه وسلم الاجيال الاسلامية كيف ينبغي لها ان تعمر المعمورة وتحيي عليها وفق ارادة العقل . فيا أيها المتواكلون المتوانون ، انظروا معي الى هذه النصائح الغالية والارشادات العالية كيف انها لاتتفق

مع شيء مما تتشيعون اليه من المبادئ والتقاليد والافكار الهرمة ، او فانظروا الى قول الله تعالى : وابتغو من فضل الله . فان فضل الله سائغ ولاكن لاتحيد عن الابتغاء منه ، ورزق الله عفو ، ولاكن مائدة من السماء لا تنزل على عائل ، والتوكل عند الله لا يجدي وسوف لا يجدي عند الناس .

وكذلك نبهت حكم الاسلام في كثير من كلماته الذهبية على الامعان في المحافظة على الثروة المالية الحاصلة ، وهو المبدأ الاقتصادي الهام الذي دندن حوله علماء الاقتصاد كثيراً أيضا ، ولاكنه اوجز كل الحكمة والنصيحة من ذلك في هذا المثل القائل : بق نعليك وابذل قدميك . فالفكرة فيه سديدة والرأي حازم الى درجة عالية معتبرة ، وحفظ الموجود أصعب من ايجاد المفقود ، ومعلوم أن ادخار فضل الداخل عن الخارج هو القانون الوضعي في علم الاقتصاد العام ، واشارة من ذلك الى اللبيب العاقل تجعله من الواثقين بالتدبير والمومنين بالعقل والممتثلين أوامر الشرع ونواهيه ارضاء للطبيعة والقانون والسياسة ايضا .

قال الله تعالى : ولا تبذر تبذيراً ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين . وقال : ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو . ولم ياذن في الفضول ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : انهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال . وقال : ليس في السرف شرف ، وقال ما عال امرؤ عن اقتصاد .

ونبه الاسلام ايضاً على وجوب استغلال الارض . وقد قال علماء الاقتصاد (ويقوله ايضاً عقلاء كل امة) : ان الارض هي اقوى الموارد على اعطاء الثروة الكاملة للعامل النشيط المجتهد والعارف الخبير ، فكان ايضاً اعرف بذلك من غيره وأسبق الى بيان اياديه وعلاقاته بالحياة الاقتصادية ، قال الله تعالى في معرض تشويق المسلمين الى الارض وفي سبيل تعريفهم بأهميتها وبقيمة الاستعمار والاستغلال والحرث : والارض مددناها وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج وأنزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات .

تحتوي هذه الآية على لطائف بديعة ومفيدة في هذا الصدد ليس هذا محل بسطها ، ويكفي منها سياق فحوى الخطاب في الآية مساق الامتنان الدال على قسط وافر من خطورة الممتن به وعظمة قدره عند الخالق المنان فكيف عند الخلق .

وبعض دواوين الحديث مشحونة بالنصائح البالغة التي كان غير دين الاسلام لا يدرك لمثلها مغزى قبل هذا العهد الذي تبدلت فيه الاحوال وانقلبت الحقائق ، وانظر معي من ذلك الى هذا الاثر الجليل والكلمة العامرة النافعة : اذا قامت القيامة وكان في يد احدكم فسيلة فلا يشغله هول الساعة من غرسها ، فانها وصاة حكيمة رشيدة تذكرنا ايضاً بهذا الاثر القائل : من باع عقاراً ولم يردد ثمنه في مثله فذلك مال قمين ان لا يبارك له فيه . وكاني بخبر الفسيلة المذكور يشير الى واقعة كسرى ، فقد قيل انه مر بشيخ طاعن في السن يغرس فسيلا فقال له : يا هذا كم اتى عليك من العمر؟ قال ثمانون سنة . قال افتغرس فسيلا بعد الثمانين ؟ فقال ايها الملك : لو انكل الآباء على هذا لضاع الابناء .

وهكذا كان مقدار عمل تعاليم الاقتصاد الاسلامية في طبائع المتنورين عميقاً الى حد الرسوخ والضعضعة حتى في

تقاليد الاسر واعراف الاحياء العربية الاخرى، وحتى كان بالاخص مسلمو زمنه عليه السلام يترسمون ذلك بدافع الغريزة او التطبع فضلا عن اشارة الدين .

أتى قوم الى قيس بن عبادة يسئلونه حمالة ، فصادفوه في حائط له يتبع ما يسقط من التمر فيعزل جيده ورديئه ، فقاموا حتى فرغ فكلموه في ذلك فبذل لهم ما أرادوا ، فقال بعضهم : صنيعك هذا مناف لترقيع عيشك . فقال : بما رأيتم من فعلي امكنني ان اقضي حاجتكم .

وقال سعيد : ولاني عتبة بن ابي سفيان ماله بالحجاز فقال : تعهد صغير مالي يكبر ولا تجف كبيره فيصغر ، فانه ليس يمنعني كثير ما في يدي عن اصلاح قليل ما فيها ، ولا يشغلني قليل ما في يدي عن الصبر على كثير ما ينوبني .

وقال زياد : لو أن لي ألف ألف درهم ولي بعير اجرب لقمت به قيام من لا يملك غيره ، ولو أن عندي درهماً فلزمني حق لوضعته فيه .

عبد الاحد الكتاني

— بهذه المناسبة نذكر ان كثيراً من علماء الغرب ينسبون النهضة الاقتصادية في اوروبا واميركا الى تعاليم (الاصلاح البروتستنتي) الذي دعى الى العمل للدنيا بقدر ما كانت الكنيسة القديمة تنقص منه ، ولا يخفى ان للاسلام اثراً في هذا الاصلاح . (م.)

شركة المعرض العربي بفلسطين المحدودة

تشجيعاً للعرب النابغين في الفنون والصناعات قررت ادارة المعرض العربي ان تقبل وتعرض اي اختراع مقبول لم يسبق له مثيل في الاقطار العربية مهما كان بدون اي رسم وان تقدم جوائز فوق العادة لاهم من تقررهم لجنة التحكيم من هؤلاء النابغين في الاختراع

(الادارة)

آراء وأفكار

مركز الكون

للأستاذ عبد الحميد سماحه

مفتش مرصد حلوان

في يوم ٢٢ يونيه سنة ١٦٣٣ وقف العالم الايطالي الكبير جاليليو جاليلي امام المحكمة المؤلفة بأمر من قداسة البابا وقتئذ لسماع الحكم عليه بشأن عقيدته العلمية . وصدر الحكم المشهور فكان لطمة جريئة على وجه الحقيقة العلمية ، ليس لها مثيل في التاريخ .

ثبت لدى المحكمة ان جاليليو اعتقد اعتقاداً فاسداً ومنافياً للتعاليم السماوية ، بأن الشمس هي مركز الكون وانها لا تتحرك من الشرق الى الغرب . وانما الارض هي التي تتحرك ، وانها ليست مركز الكون ، فحكمت عليه بأن يرتد عن عقيدته هذه وان يعلن لعنته عليها ، واحتقاره لها . ثم بالغت المحكمة في قسوتها ، فقضت على جاليليو بالسجن ؛ لولا ان تداركته العناية الالهية ، فقد اشفق البابا على الشيخ العظيم ، والغى في اليوم التالي الجزء الاخير من الحكم ، ولكنه قضى عليه بان يلزم عقر داره في الريف ، والا يتصل باحد الا باذن خاص ،

هكذا جرحت كرامة العلم في شخص واحد من اعز ابنائه . ولم يكن جاليليو في الحقيقة هو صاحب هذه النظرية ، فقد زعم بدور ان الارض والقمر والكواكب السيارة حول نار مركزية فيلالاوس حوالى القرن الخامس قبل الميلاد . ومن بعده ارستاركس العظيم احد علماء مدرسة الاسكندرية في اوائل القرن الثالث قبل الميلاد فقد قال بان الشمس والنجوم كلها ثابتة لا تتحرك ، وان الاولى هي مركز الكون : وان الارض تتحرك حول محورها مرة كل اربعة وعشرين ساعة ، وحول الشمس مرة كل سنة ، فبتسبب عن حركتها الاولى ظاهرة الليل والنهار ، وعن حركتها الثانية ظاهرة الفصول . ولكن ارسطو اعترض على ذلك اعتراضاً عظيماً فقال : لو ان الارض تدور حول الشمس لتسبب عن ذلك تغيير